الأعمال الكاملة

رياض الصالح الحسين

١٩٥٤- ١٩٨٢

المتوسط

رياض الصالح الحسين

١٩٥٤- ١٩٨٢

سيرة موت ناقص

منذر مصري

كتب خلف علي الخلف عن رياض الصالح الحسين: «سيأتي اليوم الذي يصبح فيه تدقيق معلومات عن رياض أمراً ليس هيناً» والصحيح، أن هذا اليوم جاء منذ زمن. وإذا أردنا التحديد، كان تماماً يوم السبت: ١٩٨٢/١١/٢٠، يوم وفاة رياض الصالح الحسين، واختفاء الإنسان الوحيد الذي كان باستطاعتنا سؤاله عما يصعب ويلتبس علينا معرفته عنه وعن حياته، إلاّ أننا يوماً لم نفعل. وكأنه كان من الطبيعي ألاّ نفعل، فمن كان يصدق، من كان يخطر على باله، أن رياض سيموت وهو لم يتجاوز الثامنة والعشرين!؟ وها أنذا، بمناسبة إصدار أعمال رياض الشعرية الكاملة. وهل هناك مناسبة أهم!؟. وأنا أذكر وأدقق كل معلومة استطعت الحصول عليها من أقاربه وأصدقائه وما اجتهد آخرون وأدلوا بدلائهم عنه، أجد في كل تفصيل هذه الصعوبة التي ذكرها خلف، ليس في تواريخ ولادته ووفاته وتنقّله من مدينة لأخرى فحسب، بل أيضاً الاسم، فهو مرة رياض صالح الحسين، كما على غلاف (خراب الدورة الدموية) وورقة النعوة، ومرة رياض الصالح الحسين كما على بقية كتبه ومقالاته ورسائله!؟ فالغموض أيضاً يطال درجة تعليمه، فقد توقفت دراسته بسبب مرضه، وهو في الصف السابع، ولا يعرف ما إن كان قد تقدّم لنيل شهادات لاحقة بشكل حرّ أم لا، وإنْ لا يعتقد ذلك. كما لا يوجد تأكيد ما هو نوع مرضه، أهو قصور كلوي طارئ أم ولادي، أم التهاب كبد، ما كان يجعله عَطِشاً دائماً، فيضطره للاستيقاظ ليلاً وشرب الكثير من الماء، كما أنني لم أستطع أن أجزم ما إذا كان رياض ابن الزوجة الأولى لأبيه، كما يؤكد نذير جعفر،

ويستدل به على ضعف الرباط العائلي عند رياض، أم أن أمه هي الزوجة الثانية لأبيه والتي توفيت عام /٢٠٠٠/!؟ كما يؤكد ابن أخته عماد نجار، الذي هو نفسه لم يعرف شيئاً عن عائلة أمه إلا بعد أن شبَّ وعلم أن له خال شاعر اسمه (رياض الصالح الحسين)، وأن هذا الخال له كتب، وأن الناس تتكلم عنه!؟. لم أستطع أن أجزم حتى تأكدتُ من أن لقب الزوجة الثانية (أم رياض)، ما حسم هذه النقطة نهائياً.

ولكن ماذا يهمّ في كل هذه التفاصيل!؟ فرياض مات في عمر أصغر من أن يكون له سيرة حياتية حافلة بالأحداث والمواقف، وهذا كل شيء!. أو لأقل، ولد رياض ومات ولا شيء ذا أهمية قصوى في حياته. إلاّ شعره!؟. أو ربما مرضه، الأمر الذي أدى إلى تلك المأساة، والشعور بالفاجعة عند التفكر بموته الباكر. كما ينبغي ألا أفوت ذكر كيف كان رياض لا يحب التطرّق لهذه الخصوصيات!. يوماً لم أسمعه يتحدث عن أهله ولا عن دراسته.. أمّا مرضه، فقد كان يودُّ لو أمكنه أن يخفيه عن الجميع!. ولأن هذا لم يكن ممكناً فعلى الأقل يمكنه أن يجعل الحديث عنه محظوراً.. كان أكثر ما يغيظه أن ينتبه أحدٌ ما، من خارج دائرة أصدقائه ومعارفه، لإعاقته السمعية والنطقية ويسأله عنها!. كان. تحاشياً لجلوس فضولي ما بجواره. يحجز مقعدين في الباص كلّما سافر. كان يريد أن يخفي أي عيبٍ أو نقصٍ بنظر الآخرين. مما أدّى إلى أن لا يُعرف عنه سوى الشذرات، سوى أشياء حدثت للآخرين معه، أما الباقي فلا شيء مؤكّد، وهذا يفسّر ما انتهى إليه ابن أخته عماد نجار عند بحثه عمن كان يعرف خاله جيداً، حين قال لي: «وكأنّه لم يكن له صديق حقيقي». كان رياض يريد أن يكون صحيحاً، لا ينقصه شيء كالجميع، كاملاً أو شبه كامل كالجميع، وقابلاً لكل شيء، وأكثر من كل شيء.. للعلاقات العاطفية، وللحب، الذي كان رياض يفعل كل شيء للحصول عليه، فهو الدليل على أنه لا يعيبه شيء، لا أهل ولا دراسة ولا مرض.. الحب شاغله الأول والأخير أما بقية الشواغل . مهما كانت. ففي الوسط.

ما يلي.. سيرة ناقصة لشاعر مات وترك كل شيء ناقصاً. سيرة حياة جاءت نهايتها على عجل!. ذلك أن الموت لسبب أو لآخر راح يكمن لها عند كل منعطف أو تقاطع، ثم برز من مكمنه وقطع طريقها عند أقرب فرصة.. حياة تنبع ثم تجري منحدرة كنهر، لتصب كالشلال في بحيرة الموت. أما التفاصيل التي سترد رغم حرصي على صحتها إلى هذا الحد أو ذاك، فليست سوى شظاياها:

- ١٩٥٤/٣/١٠، ولد (رياض الصالح الحسين) في درعا، جنوب سوريا، كما في بطاقة هويته، وكان يمازحني دائماً بأنه يصغرني بأربع سنوات ولديه ثلاث مجموعات بينما أنا لدي مجموعة واحدة!.

- أبوه (صالح الحسين الصالح) من بلدة (مارع) شمال حلب، متطوع في الجيش، وصل إلى رتبة مساعد أول، تنقل وعاش مع عائلته في عدد من المدن السورية وتوفي في عام ١٩٩٣. وأمه زوجة أبيه الثانية (سامية ليلى) توفيت عام ٢٠٠٠.

- لديه من زوجة أبيه الأولى أخوان (حسين وحسن)، ومن أمه ستة أشقاء (نورس وهيثم ونضال وحسان وأكرم وأيمن) وثلاث شقيقات (مها ونوف وغادة).

- نال رياض الشهادة الابتدائية في منطقة دمر البلد، ودرس ثلاثة أشهر من الصف السابع في قدسيا. ثم اضطر لترك الدراسة بسبب مرضه بالتهاب المجاري البولية، تطور ليغدو قصوراً كلوياً حاداً، مما أدى لإجراء عملية جراحية في مشفى المواساة بدمشق، عام /١٩٦٧/، كان من نتائجها أنه فقد السمع والقدرة الطبيعية على النطق.

- في عام /١٩٧٤/، قام بعملية جراحية ثانية في بلغاريا. للتخفيف من عواقب العملية الأولى، حيث تعرف على سمر المير. (س) التي أتى على ذكرها في قصائد عديدة.

- كان على علاقة قريبة من الأمومة بأخته من أمه (فريزة) زوجة الممثل الحلبي الراحل (عبد الوهاب الجراح).

- في عام /١٩٧٥/ جاء إلى حلب وسكن في حي (الصاخور) وحصل على وظيفة عامل مياوم في شركة خاصة للغزل بحي التل بحلب، حيث تعرف على الشاعر (علي كتخدا) ثم انتقلا للعمل معاً بفرز الأوراق في مؤسسة الأمالي الجامعية، التابعة لاتحاد طلبة جامعة حلب. وهناك تعرف أيضاً على نذير جعفر، الذي كتب عنه في روايته (تحت سقف واطىء).

- شكلت صداقته مع الشاعر بشير البكر الذي جاء من الحسكة ليدرس في كلية الزراعة في جامعة حلب، مفصلاً هاماً بحياته، فقد أدخله بشير في الوسط الثقافي وجو الأدب والشعر. فتعرف على الروائي (نبيل سليمان) وكان يعمل في التدريس بثانويات حلب، والقاص (نجم الدين سمان)، والشاعر (حامد بدرخان)، وأغلب أدباء حلب.

- بدأ بنشر قصائده بشكل جدي منذ عام /١٩٧٦/. وكانت في البداية كما حدث لأغلب شعراء قصيدة النثر من جيل السبعينات، إن لم نقل لجميعهم، موزونة ومقفّاة، في مجلة (جيل الثورة)، وهي دورية شهرية صدرت لفترة لا بأس بها عن الاتحاد الوطني لطلبة سوريا، وكان يرأس تحريرها آنذاك (لؤي عيادة)، الذي ساعد رياض على أن ينشر على صفحاتها عدة قصائد ومتابعات ثقافية ضمّنها رياض أفكاره عن الشعر والوسط الثقافي السائد حين ذاك، مقابل مكافآت مالية متواضعة.

- في عام /١٩٧٧/، تحول رياض نهائياً لكتابة قصيدة النثر، وتعتبر قصيدتا (الرجل السيء)، و(جرثومة النبع) أهم قصائد تلك المرحلة.

- في بداية عام /١٩٧٨/، انتقل رياض للحياة في دمشق، وعمل مع

أخيه (حسن) عند أحد الخياطين. إلا إنه سريعاً ما انخرط في الجو الثقافي للعاصمة، وعمل في مكتب الدراسات الفلسطينية حتى وفاته.

- سكن في حي الديوانية الشعبي، في غرفة وحيدة بحمام ومطبخ، يصعد إليها بواسطة درج، وعلى جانب بابها، توضّعت المغسلة.

- تعرف في دمشق على أهم مؤثرين مباشرين في شعره وشخصه، بعد (محمد الماغوط)، وهما (بندر عبد الحميد) و(نزيه أبو عفش). كما تصادق مع (جميل حتمل) و(فرج بيرقدار) و(خالد درويش) و(وائل سواح) و(خليل صويلح).

- تشارك مع (وائل السواح - جميل حتمل - حسان عزت - فرج بيرقدار- بشير البكر - خالد درويش - موفق سليمان - فاديا لاذقاني) في إصدار نشرة (الكراس الأدبي) الذي صدر منه /٩/ أعداد وتوقف بعد اعتقال أغلب المشاركين به، وقد تعرضّ رياض لمزيد من التحقيق والتعذيب بغية التأكد من صممه وتعثّر نطقه. الأمر الذي ساهم بتحديد الموقف السياسي الذي حمله رياض للدقيقة الأخيرة والكلمة الأخيرة من حياته. وأظنه ما زال يحمله في موته.

- في عام /١٩٧٩/، صدرت عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي في دمشق، أول مجموعة شعرية لرياض بعنوان (خراب الدورة الدموية) لا تتضمن سوى قصائد نثرية. الغلاف والرسوم الداخلية بريشة (بشار العيسى).

- في عام /١٩٨٠/، صدرت عن وزارة الثقافة أيضاً، مجموعة رياض الثانية (أساطير يومية)، بكلمة غلاف كتبها الأستاذ أنطون مقدسي دون ذكر اسمه. أما الغلاف فكان بريشة (عاصم الباشا).

- في حزيران /١٩٨٢/، قبل وفاته بخمسة أشهر، صدرت مجموعته

الشعرية الثالثة (بسيط كالماء واضح كطلقة مسدس) عن دار الجرمق الفلسطينية، دمشق. بتقديم مسهب لسعدي يوسف، تردّد رياض في تضمينه كمقدمة للمجموعة، لكنه، ليس فقط لأهمية اسم سعدي بل أيضاً لقدرة رياض على تقبل واستيعاب كل ما تضمنه التقديم من ملاحظات. وكان الغلاف هذه المرة بريشة (يوسف عبدلكي)، والرسوم الداخلية بريشة (ليلى نصير).

- في الفترة الأخيرة من حياته كان شديد القرب من الشعراء العراقيين المقيمين في دمشق، (مهدي محمد علي) و(هاشم شفيق) و(كريم كاصد). فالسوريون، كانوا دائماً، مشغولين بأنفسهم.

- يأتي ذكر أسماء فتيات، صادقهن رياض وأحبهن، إلاّ أنه في آخر سنة عاشها، كان مولها بفتاة عراقية، تدعى (هيفاء أحمد)، يذكر أنها كانت أرملة ولديها طفلتان، وهي ابنة أخت عضو في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي، مقيم مع عائلته في دمشق، وقد تقدم رياض لخطبتها رسمياً مصطحباً معه (مهدي محمد علي) وصديقين عراقيين.

- يخبر صديقه منذر مصري في رسالة بتاريخ ١٩٨٢/٦/٢٠: (أما أنا فأبحث عن كوخ للزواج، فالأمر أصبح جدياً، والطفل يقرع الجدران).

- تعرض رياض لأزمة عاطفية قاسية، عندما قطعت (هيفاء أحمد) علاقتها معه، إثر معرفتها برحلته إلى اللاذقية، بصحبة الفنانة التشكيلة (هالة الفيصل). مما جعله لا ينام لأيام، يقضي لياليه وحيداً، دون صحبة أحد، سوى التدخين والكحول، مما أدى، لانهياره بالكامل، صحياً وذهنياً.

- وصدف آنذاك أن كان (مهدي محمد علي) في زيارة لدمشق، وحين لم يلتق به في مقهى الروضة، أو في مكتب مجلة (البديل) التي يقوم

مهدي بتحريرها، لأيام، وعدم معرفة الجميع بأحواله عند سؤالهم عنه، قرر أن يذهب هو و(هاشم شفيق) إلى غرفته ويستفقده، ليجده مكوماً فوق سريره، على شفير الموت، يرتجف ويهلوس، ويطلب ماء، فراح مهدي يعبئ الماء من الصنبور خارج الغرفة براحتيه ويسقيه.. كل ما في الغرفة كان في حالة فوضى شديدة.

- نقل مهدي وهاشم رياض إلى مشفى المواساة، في حالة إسعافية، عصر يوم الجمعة ١٩٨٢/١١/١٩.

- غادر مهدي وهاشم المشفى بعد أن قاما بكل ما يستطيعانه، فأمضى رياض الليلة الأخيرة من حياته وهو غائب عن الوعي.

- عند الساعة /١٠/ صباحاً جاءت هيفاء أحمد إلى المشفى، مكثت برهة ثم غادرت.

- السبت ١٩٨٢/١١/٢٠ الساعة الرابعة مساء، أعطى الموت أوامره النافذة بإعدام كل علامات الحياة في قلب وجسد هذا الإنسان الممدد وحيداً على سرير ضيق في مشفى عام. مات رياض الصالح الحسين عن عمر لا يتجاوز /٢٩/ عاماً.

- الأحد ١٩٨٢/١١/٢١، نقل جثمان رياض عارياً إلا من سروال داخلي، من براد مشفى المواساة إلى بلدته (مارع)، حيث مضى سرب مؤلف من /١٠/ سيارات، استقلها العديد من أصدقاء رياض، واحدة منها سيارة إسعاف الهلال الأحمر الفلسطيني.

- في (مارع) استقبل ذوو رياض المعزين بفتور ظاهر، كما ذكر البعض. وبعد دفن رياض، عاد الأب معهم إلى دمشق ليجمع كافة أغراض رياض الشخصية، ويذكر (بندر عبد الحميد) أن أكثر ما اهتم به أبو رياض هو مستحقّات ابنه المالية والأمور المادية الأخرى.

- يقول مهدي إنه، رغم اضطرابه الشديد، سمح لنفسه قبل مغادرته

غرفة رياض للمرة الأخيرة، بفتح درج الطاولة وإخراج مخطوطة (وعل في غابة)، التي كانت جاهزة للطبع تماماً، حتى الإهداء: (إلى هيفاء أحمد).

- ١٩٨٣/١٠/٣٠، بعد وفاة رياض بما يقارب السنة، صدرت مجموعة رياض الصالح الحسين الرابعة والأخيرة (وعل في غابة)، التي ختمها بقصيدة عنوانها (اعتياد)، سطرها الأخير: (لقد اعتدت أن أنتظرك أيتها الثورة). ويالها من مصادفة، أن تكون آخر كلمة كتبها رياض الصالح: (الثورة).

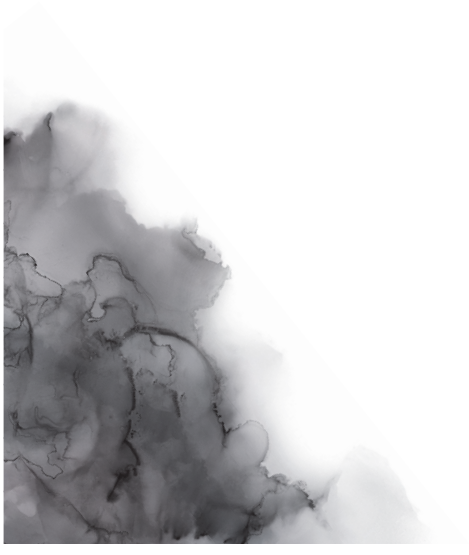

خراب الدورة الدموية

دخان

كئيباً ومُنفتِحاً كالبحر، أقفُ لأحدّثَكم عن البحر
مُستاءً وحزيناً من الدنيا، أقفُ لأحدّثَكم عن الدنيا
متماسكاً وصلباً ومستمرّاً كالنهر،
أقفُ لأحدّثَكم عن النهر
وعندما يصبحُ للنافذة عينان تَرَيان يأسي
وللجدران أصابع تتحسّسُ أضلاعي
وللأبواب ألسنةٌ تتكلّم عنّي
وعندما يصبح للماء طعمُ الماء
وللهواء نكهةُ الهواء
وللحبر الأسود هذا رائحةُ الحبر
وعندما تهيّئُ المطابعُ الأناشيد للقرّاء بدلاً
من الحبوبِ المنوّمة
وتهيّئُ الحقولُ القمحَ بدلاً من الأفيون
وتهيّئُ المصانعُ القمصانَ بدلاً من القنابل..
سأقفُ، أيضاً، سأقفُ لأحدّثَكم عنّي
لأحدّثَكم عن الحبِّ الذي يغتالُ المراثي
عن المراثي التي كانتْ تفتحُ دفترَها الملكي
لتسجلَّ أسماءَكم في قائمة القتلى
عن القتلى المتشبّثين بالضماد والميكروكروم

الذي لم يأتِ
وسأقفُ، أيضاً، سأقفُ
لأحدّثَكم عنّي
مثلما يتحدّثُ الديكتاتور عن سجونه
والمليونير عن ملايينه
والعاشق عن نهدي حبيبته
والطفل عن أُمّهِ
واللص عن مفاتيحه
والعالم عن حكّامه
سأحدّثُكم بحبّ، بحبّ، بحبّ
بعد أنْ أشعلَ سيجارة.

الرجل السيئ

«الموت! فنٌّ، ككلّ شيءٍ آخر، وإني أتقنه تماماً»
سيلفيا بلاث

وأذكر أن المرأة الزرقاء عندما رأتني أبكي جثثاً وفقراء
قالت: عيناك مرآتان لخمسين قارة من الوجع والانتظار
وقالت المرأة التي ترتدي العاصفة والوحوش:
أنت تعرف الكثير عن صبايا الأزقة المغلفات
بالأقفال البلاستيكية الملوثة
والأطفال الأغبياء المتمسكين بالأحصنة
الخشبية ونهود الأمهات
وقالت المرأة بعد أن فتحت شاشتي عينيها:
(كان ثمة عاشق يرعى فيهما شجراً ومعتقلات)
يداك قاسيتان ووديعتان
وأصابعك نحيفة ومعذبة
فهل لمست بهما الرغيف الثمين أو الشفاه
الرمادية المرتعشة؟
هل قبضت على الغالم؟
وقالت المرأة لي:
أنت تهذي كثيراً بأسماء الأسماك

والأعشاب البحرية
وتفتح مملكة دماغك ليل نهار
لقوافل الغجر التائهة
وتمزق بأظافرك لحم الأبواب
والجدران السميكة
فأي الأشياء أحب إليك:
أن تمضغ بشراسة رؤوس العصافير؟
أو أن تكسّر الصحون والموائد المصنوعة
من خشب الجوز؟
وقالت لي أيضاً وهي تنظر إلى الرأس
المشوّه المتوتر في لوحة لسعد يكن:
أمك بجانبك تنحني عليك كيمامة
وأصدقاؤك يقبلونك في المناسبات
وأنا أدفئك في ليالي تشرين الباردة
وأرسل إليك الأحلام الشاسعة والمكاتيب
فماذا تطلب غير ذلك؟!..
أتريد أن تفجر النبع؟ أم تود أن تحرث المجرة؟
وقالت المرأة القاسية:
أبتكرُ لك الدنيا..
خمسة جدران بيض
وسريراً أبيض
ووردة بيضاء في كأس.
وكان يمكن أن أبتكرَ نعشاً
- أنا الرجل السيئ -

لفاطمة العنيفة ونزيه الخائف والبحر التعيس
للأقفال الكريستالية السوداء
للقرى الصاخبة بالعنب والديوك والبطون المقعرة
للأغاني الممزقة في سلة المهملات
للمعاملات العقارية المبطنة بالأختام
لحبوب الأسبرين والعشاق
لمصارعي الثيران الأذكياء في إسبانيا
للمجرفة الصلبة والفلاح الرقيق
للدم الأخضر ومرتزقة الانقلابات
أنا الرجل السيئ
كان علي أن أموت صغيراً
قبل أن أعرف المناجم الحارة والدروب
المرأة التي تغسل يديها بالعطور
والملك الذي يزين رأسه بالجماجم
الولد الخبيث ذا اللثة الطرية الذي يُقشّر
الحليب من البكتريا والحروب من الانتصارات
أنا الرجل السيئ
كان علي أن أموت صغيراً
قبل أن أعرف الأشجار الإرهابية ومافيا السلام
وفاة بائع المرطبات على سكة القطار
والغجرية التي أهدتني تعويذة وقبلة
وكثيراً من الأكاذيب
أنا الرجل السيئُ
كان علي أن أموت صغيراً

قبل أن تفترسني الوردة
وينحت الفنان النظيف من عظامي القلائد والأقراط
الفنان النظيف الوردة النظيفة
يرسم الفنان النظيف الوردة النظيفة
في حجرة ممتلئة بزجاجات البيرة
والعرايا
لافتة للفنان النظيف:

الفنان النظيف يحب الوردة
الحب للوردة والوردة للسكاكين

أيتها السكاكين المسكينة
أيها الجسد الإنساني القذر
أيتها الكلاب المعبأة بالمقانق والمحبة وعبير النعناع
أنا رياض الصالح الحسين
عمري اثنتان وعشرون برتقالة قاحلة
ومئات المجازر والانقلابات
وللمرة الألف يداي مُبادتان

للمرة الألف يداي مبادتان
كشجرتي فرح في صحراء
الشمس الشمس
الشمس الناضجة
الشمس المدورة كنهد
المنتشرة كالطاعون في القرن التاسع عشر

المضيئة كعيني طفلة بقميص شفاف على البحر
الشمس الشمس
تمر بأسنانها على عنقي اليانع
وتقضم أيامي كما يقضم الطفل تفاحة أو قطعة بسكويت
فتنقفل يداي على صدري
يداي - كخطى الجنود - مُبادتان
أسأل صديقتي
(صديقتي لحم ودم وخراب)
في الشارع أسأل صديقتي
(الشارع ضيق عندما نبكي
قليل عندما نشتاق)
أسأل صديقتي:
لماذا، للمرة الألف، نباد؟
منقطعان عن الحب
ممتلئان بالخنادق كامتلاء دمية بالقش
وبعد قليل يغطي الغبار جسدينا
بعد قليل نتشبث بغصن التعب
متعبان البارحة... متعبان اليوم
وربما غداً، أيضاً، نكون متعبين
فمي مُباد ولذا لا أستطيع أن أقبلك
يداي مُبادتان ولذا
لا أستطيع أن أسرقك مِن البرد
في المقهى ننام
في الشارع نبكي